خاتمة

رأينا فيما تقدم ما قام به صلاح الدين من أمر الجهاد الذى نصب نفسه له من يوم أن تولى وزارة مصر ، وما أداه من الخدمات الجليلة للشرق ، وما ظفر به من النصر على أقوام الأفرنج وأمراء المسلمين ، فاستطاع أن يوحد قطرين من أقطار العالم الأسلامي بعد أن فرقتهما الأحزاب الدينية ، وبعثرتهما المطامع الشخصية ، فجمع تحت سلطانه ، من الكردستان حتى بلاد تونس ، أقواماً اختلفت عاداتهم ، لكن وحدتهم قوته ، ولاءمت بينهم شفقته ،

ما كنا لنرى بين هذه الأجيال المختلفة من الناس إلا المحبة والوئام وتلبية للسلطان فى ساعات الأخطار ونزال الأعداء ، ذلك دليل على المحبة والاحترام ، وما أحبه الناس واحترموه إلا لأنهم وجدوا فيه لهم ناصراً ، ولاعدائهم خاذلا ، ليس لأمره يسعى ولا لثروته يعمل ولا اصالحه يجد ، بل كان سعيه وعمله وجده لصالح الأسلام والمسلمين ، فلبى الرؤساء نداءه ، واستمع الناس قاطبة له ، وهكذا كل عامل للمصلحة العامة

ولقد علمنا من حوادثه كلها أنه ما كان يعمل برأيه منفرداً ، بل يأخذ على الدوام برأى الجماعة لِمَا كان يراه فى رأى الفرد من الاستبداد بالأمر ، وهو يكره الاستبداد والمستبدين ، عملا بأمر الدين وجرياً على سنة رسول الله ، فاضطر كثيراً للعدول عن رأيه وهو يعلم صحته ، خضوعاً لرأى الجماعة ، كما حصل أمام عكا وصور

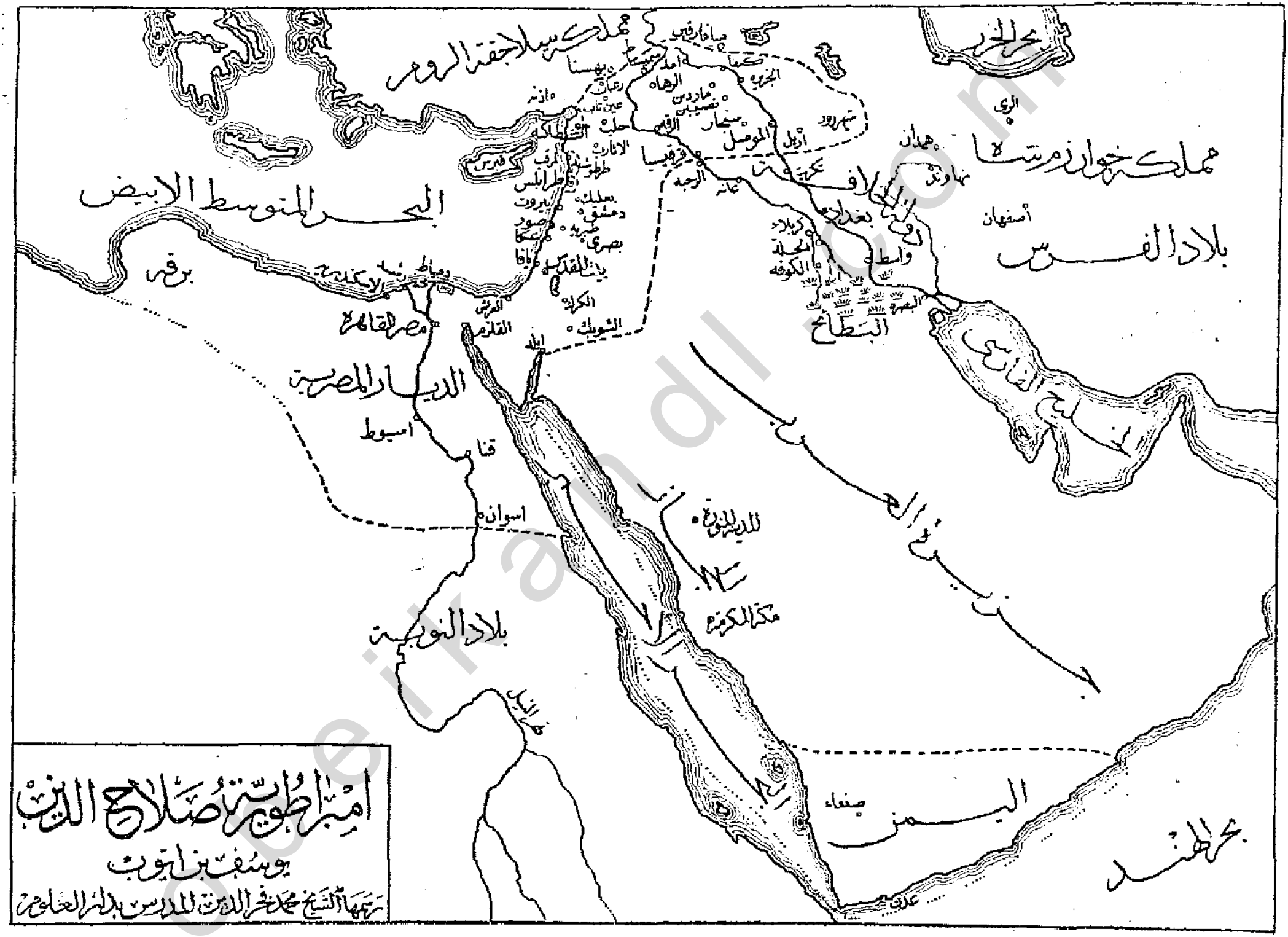

امبراطورية صلاح الدين

يوسف بن ايوب

رسمها الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم

obeikandl.com

اتخذ فى أول أمره من أهله وذويه عوناً له فى تنظيم الأحوال وترتيب الأمور ، دون أن يرتاب فى أحدهم أو يأخذه الشك فى أمرهم ، فعززوه ونصروه ، ثم ركن إلى أهل المقدرة من أتباعه وخواصه ، فأدوا له من الخدمات أجلها ومن الأعمال أكثرها نفعاً وأعمها فائدة ، وهؤلاء وهؤلاء فى خدمته أطوع له من يمينه ، وعلى ملكه أحرص منه نفسه ، لا تلهيهم أعمالهم ولا أموالهم ولا أولادهم عن خدمة السلطان ، سواء أتمتعوا بالراحة أم لم يذوقوا طعماً للنوم ، وكان السلطان حيال هذه الخدمات لا يقصر عن تقريبهم منه وإجزال العطايا لهم وتفويض الأمور إليهم حتى كان يحدثهم بما هو عازم على عمله ، ولا غرو فهم عدته وعماده ، وقد قال لكاتبه الخاص بهاء الدين ، بعد أن تم صلح الرملة ، إنه يود أن يسير بالجيش إلى ناحية الشرق ، نحو فارس وما جاورها ، لولا ما عليه الجيش من التعب بعد هذه الحروب الطاحنة

مات هذا السلطان الكبير ، والفاتح العظيم ، والقائد الفذ ، فلم يبق واحد من أتباعه إلا بكاه بكاءاً مراً ، وحزن عليه حزناً شديداً ، ذلك لأن كل فرد من رعيته كان يرى فيه أباً رحيماً ، ووالداً شفيقاً ، وحاكماً عادلاً ، وسلطاناً على الأعداء شديداً ، وفى الحق صلباً ، وعلى الظالمين قاسياً ، وعلى مصالح المسلمين ساهراً ، وفى جهاد الله مثابراً ، ولتوحيد كلمة المسلمين عاملاً ، ولصالحهم كلهم على السواء دائباً ، لا ينام إلا على مصالح المسلمين ، ولا يستيقظ إلا على ذكر أحوال البلاد ، لا يقعده عن ذلك كله مرض ، ولا يلهيه عنه أهل ولا ولد ، فأحبته الناس حياً ، وجزعت فيه ميتاً ، فبكته بكاء

الثواكل . وإن الذى يقرأ ماقاله لولده الظاهر يوم أن أرسله إلى حيث ولاّه ، ليدرك بلا عناء سياسته التى اتبعها والتى كان يتخذها شعاراً له فى أيامه ، فحبيته للناس قاطبة . أنظر إليه وهو يقول له «أوصيك بتقوى الله تعالى فأنها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به ، فأنه سبب نجاتك ؛ واحذر من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فأن الدم لا ينام ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم ، فأنت أمينى وأمين الله عليهم ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر فما بلغتُ ما بلغتُ إلا بمداراة الناس ؛ ولا تحقد على أحد فأن الموت لا يبقى على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس ، فأنه لا يُغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فأنه كريم »

لا يمكن أن يلحظ الأنسان من أخبار صلاح الدين أو يلمح من أحواله مع رعيته أبهة الملوك وعظمة السلاطين ، فكان لأي فرد من أفراد رعيته أن يصل إليه من غير عناء ، لا يعترضه حاجب أو وزير ، لا خوف ولا رهبة ، يذهب صاحب المظلمة بنفسه ويبث للسلطان شكواه ، وقد تتزاحم عليه الوفود من أصحاب المظالم فلا يضجر ، وما توافد الناس عليه إلا لمعرفتهم فيه لين الجانب وإحقاق الحق ، وأنه الأليف الأنيس اللطيف معهم على السواء ، وكان فوق هذا رقيق القلب سريع التأثر ، تتحرك عواطفه وتدمع عيناه عند سماعه أصوات الضعفاء والمساكين فيجزل لهم العطايا ، فكان قلبه مملوءاً حباً للأنسانية وأعمال البر والأحسان ، تلك الحالات التى لم تعرف إلا قليلا فى هاتيك الأيام ؛ وكان من الشفقة بحيث لا يستطيع أن يرى خادماً له يضرب ؛

وعجيب هـذا من سلطان كانت السادة فى أيامه تضرب عبيدهم وخدمهم ، وما كان يرى يتيما إلا تحرك قلبه حناناً عليه ، فيؤويه إذا لم يجد له أهلا ، فأذا وجد له من الأهل من يكفله سلمه إليهم وأعطاهم ما يكفى لتربيته .

كان مثال السذاجة فى ملبسه ومأكله ومسكنه ، وقد بُنى له مرة منزل أنيق فى دمشق فلم ينظر إليه طويلا وقال « ما كنا لنجلس فى هذا المكان إلى الأبد ، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت ، وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه » لم تفتنه أموال ملكه الواسع ، فكان يقول « إن المال والتراب سيان عندى » لذلك كان يكره أن يفد عليه سائل فلا يعطيه ، بل أكثر من هذا ، فما طُلب منه إلا أعطى أكثر مما سُئل ، وإذا أعيد عليه السؤال أعطى دون أن يقول « قد أعطيناك من قبل » ولكثرة بذله كان أعوانه ينكرون وجود المال لديهم حتى لا يكثر البذل فتفنى الأموال فلا يجد ما يعد به الجيوش لحرب الأعداء ، وليس أدل على جوده وكرمه وبذله أكثر من أنه عند وفاته لم يجد الناس لديه مالا ، كما أنه لم يترك ضيعة ولا قصراً ؛ وإلى هذا يشير صاحب السمو الأمير محمد على فى الرحلة الشامية « وكان رحمه الله غاية فى الجود والكرم ، حتى قيل إنه لم يترك بعد وفاته سوى ٤٧ درهماً ، وهى ثروة ربما ترك السائل لأولاده أضعاف أضعافها ، ولكن السخاء والحنان والشفقة على المساكين والفقراء تستنفد المال ولو كان مثل الجبال » ثم يقول « دخلنا قبر هذا الملك وهو بجانب الجامع الأموي من جهة الشمال ، ورأينا حال دخولنا حديقة لا تزيد عن خمسة أمتار طولا فى مثلها عرضاً ، وهنا أخذتنى هزة عند ما رأيت صلاح الدين

صاحب الحروب الصليبية ، والذى أخضع الجبابرة وأسر القياصرة ، والذى كان يضيق بهمته الشماء ، فضاء ما بين الارض والسماء ، ينتهى أمره بسكنى هذا المكان الضيق ، وتكون حديقته أمتاراً معدودة ، يوجد فى مقابر البسطاء من الناس ما هو أكبر منها ؛ نعم إن الميت فى قبره لا ينتفع بسعة المكان ، كما لا يهمه شئ من زخارف الحياة ، وإنما كان أسفى من أن الشرقيين ، وهم أعرف الناس بقدر هذا الفاتح المظفر ، لم يحفلوا به كما يحفل الغربيون بعظماء رجالهم ، مع أن الغربيين أنفسهم قد قدروا قدر هذا الرجل ، وليس هناك أدل على ذلك من إهداء أمبراطور ألمانيا إلى قبره إكليلا زهريا يسر الأنسان أن يرى منه برهاناً على شعور جلالة الأمبراطور واحترامه ، بقدر ما يحزنه ألا يرى شيئاً مطلقاً من جانب الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً على قبره »

نعم إن ما لاحظه سمو الأمير لجدير بالاعتبار ، فأن المسلمين ليس لهم فى قبر صلاح الدين أو عليه أثر يذكر ، وكان واجباً عليهم أن يقيم السلاطين ، وأخص بالذكر منهم أولئك الغزاة الفاتحين ، آثاراً تنبئ بأنهم يعرفون للرجل قيمته وجهاده فى الله حق الجهاد ؛ لكنى لست أدرى ما الذى أقعدهم ويقعد غيرهم عن العمل ؟ لعل ذلك راجع إلى جهلهم أحوال هذا البطل الكبير والفاتح العظيم ، أو أن هذا راجع إلى ما ينهى عنه الدين الأسلامي فى أصله من مسألة تزيين القبور وإعدادها للزيارة ، مخافة أن يقدم إليها العامة القربات وما يشبه العبادات من أعمال الوثنية كما هو حاصل

وبمناسبة ذكر سمو الأمير اسم أمبراطور ألمانيا أقول إن هذا

الأمبراطور زار بلاد الشام سنة ١٣١٦هـ (سنة ١٨٩٨م) ومعه الأمبراطورة ، ولما كانا فى دمشق خطب خطبة قال فيها ما ترجمته « ومما يزيد فى سرورى أنى موجود فى بلد عاش بها من كان أعظم رجال عصره وفريد دهره شجاعة وبسالة ، من كان قدوة الشهامة ، والذى كانت شهرته متجلية فى الآفاق ، ألا وهو القهرمان صلاح الدين الأيوبي » وقد أرسلت الأمبراطورة إكليلا بديعاً من الزهر ليوضع باسم الأمبراطور على ضريح بطل التاريخ العربي ، وقد نقش بالعربية على بند الأكليل (ويلهلم الثانى قيصر ألمانيا وملك بروسيا ، تذكارا للبطل السلطان صلاح الدين الأيوبي)

وقد قال شاعر النيل شوقى بك قصيدة عصماء عنوانها : (تحية غليوم الثانى لصلاح الدين فى القبر) أورد منها ما يأتى

عظيم الناس من يبكى العظاما ... ويندبهم ولو كانوا عظاما
وأكرم من غمام عند محل ... فتى يحيي بمدحته الكراما
وما عذر المقصر عن جزاء ... وما يجزيهمو إلا كلاما
فهل من مبلغ غليوم عنى ... مقالاً مرضياً ذاك المقاما
رعاك الله من ملك همام ... تعهد فى الثرى ملكا هماما
أرى النسيان أظمأه فلما ... وقفتَ بقبره كنت الغماما
تقرب عهده للناس حتى ... تركت الجيل فى التاريخ عاما
أتدرى أي سلطان تحيي ... وأي مملك تهدى السلاما
دعوت أجل أهل الأرض حرباً ... وأشرفهم إذا سكنوا سلاما
وقفت به تذكره ملوكا ... تعود أن يلاقوه قياما

وكم جمعتهمو حرب فكانوا حدائدها وكان هو الحساما
كلام للبرية داميات وأنت اليوم مَن ضمد الكلاما
فلما قلتَ ما قد قلت عنه وأسمعت الممالك والأناما
تسألت البرية وهى كلمى أحباً كان ذلك أم انتقاما
وأنت أجل أن تزرى بميت وأنت أبر أن تؤذى عظاما
فلو كان الدوام نصيب ملك لنال بحد صارمه الدواما

كيف لاتجتمع الأمة الأسلامية بأسرها على هذا الرجل العظيم الذى كشف عنها الغمة التى المت بها من جراء تعدى الأفرنج عليها وعلى بلادها ، فنهض بجلائل الخدمات للشرق والشرقيين والأسلام والمسلمين ، فهو الذى قال لجنود الاعداء « قفوا مكانكم فها قلب أسد أقوى من قلب أسدكم » دون أن يخشى سهام العدو المرسلة إليه ، فأنهكت الحرب قواه ، ولقد كان يركب جواده ويقود جنده وهو مريض لا يستطيع الاطمئنان على سرجه فيقال له فى ذلك فيقول « إنى إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر جوادى » بهذا كله تقدم الناسُ بأرواحهم إليه

نعم وصل السلطان صلاح الدين إلى هذه المكانة فى أمته بل وعند أعدائه بأقدام شهد بثبات جنانه ، ودربة استمال بها الألباب ، وخبرة افتتح بها البلدان ، وقادبها الأجناد ، حنان وشفقة جعلتا له من المكانة فى قلوب رعيته ما لم توجد لغيره من قبله ، فأحبها ومال بكلياته على مصالحها ، فكان خلاصة الشرف الأسلامي ، وبقية المجد الشرقي ، يجتمع فى مجلسه العلماء والوجهاء ويقصد بابه الفقراء والضعفاء وذوو الحاجات ، كل هذا وهو متواضع على

حد قول القائل « وأدهشنى منه التواضع والتقى »

وكثيراً ما كان يعرض نفسه للخطر مع جنده ، رغبة منه فى نجاة ملكه ، فلا يعرضه لهجوم العدو الذى كان يتربص به ، وهذا شمم وعلو نفس وإقدام قلّ أن يصدر مثله عن السلاطين والملوك ؛ على أنه فوق هذا ما كان يهمل فى ترتيب شؤن بلاده ، يصرف وقتاً كبيراً فى إعزاز شأنها ، حتى بلغت فى أيامه ما بلغت ؛ وقد كان فى رعيته كالأب الرؤوف يواليها بالنصيحة ، ويرشدها إلى سبيل الخير والسعادة

ولقد شهد له بهذا وبأكثر منه أعداؤه أنفسهم فقال استانلى ما ترجمته « ولم تخطئ الناس إدراك أوصافه وأخلاقه ، فهو بلا نزاع شريف النفس همام شهم شجاع وديع رقيق شفيق ، طاهر القلب نقيه ، ناصع الحياة زاهد فيها ، مجد كدود ساذج فى أحواله كلها ، غيور على دينه ؛ بهذه الأوصاف أصبح جديراً أن يكون مثال البطولة فى الاسلام »

وجاء فى كتاب تاريخ المؤرخين ما ترجمته « والذى أدهش المسيحيين من أمر صلاح الدين هو مروءته وشهامته وسخاؤه وكرمه ورحمته وحلمه وصفحه وعفوه ، لا سيما محافظته على العهود والمواثيق ، ومن المدهش أن تكون هذه الأوصاف التى ملأت قلوب أهل أوروبا إعجاباً هى الأوصاف التى يصفون بها ذلك الرجل الذى انتصر عليهم فهزمهم فى آسيا »

وإليك ما جاء فى هذا الكتاب عند الكلام على صلاح الدين « ولقد كان من شدة كرمه أن عماله كانوا ينكرون عليه المال حتى إذا جاءت ساعة الحاجة إليه أخرجوا له ما يريد ، وهذا من كثرة بذله وإعطائه ، وكان من

عادته أنه إذا استولى على مقاطعة من المقاطعات نشر أعلام كرمه وسخائه على أتباعه وسكان الجهة ، فملك بذلك رقابهم ؛ ولما استولى على دمشق لم يأخذ لنفسه شيئاً من خزائنها ، بل وزع كل ماوجد على الأهالى ؛ يحترم كل من فى خدمته ، ويعاملهم معاملة لينة ، فاذا وقع من أحدهم ما يسيئه كتمه ولم يظهره ؛ وكان حريصاً فى كلامه مقلاً فيه ، فنسج على منواله أتباعه ؛ أما مجلسه فكان طاهراً ، لا يجسر فرد أن يقول سوءاً فى جار له ؛ ولم ير يتيما إلا تحركت فيه عاطفة الشفقة والحنان عليه ، وإذا قابل شيخاً هرماً بكى ؛ وكان فوق هذا محباً لأولاده وأهله ، وكثيراً ما شارك أطفاله فى لعبهم ؛ وكان ديانا ربى أولاده تربية دينية ؛ وكان يحب العدل ويعاقب كل من خالف أحكامه ، فكان يجلس للمظالم بنفسه مرتين فى الأسبوع ، بابه مفتوح للصغير وللكبير ، للغنى وللفقير ، فى حله وترحاله ، فى سفره ومقامه »

وقال عنه استيفن سن « كان صلاح الدين موفقاً فى خططه ، ماهراً فى عمله ، سريعاً فى تقدير قوى عدوه ، لم يتردد لحظة واحدة فى تنفيذ ما رسمه ؛ أما نشاطه فما كان يعرف الملل ولا التعب ، وكان صبوراً على الشدائد يثق بنفسه وثوقاً عظيما . كل هذه من الأوصاف الظاهرة فيه ظهوراً جلياً ؛ نظره فى الأمور نظر صادق ، وحكمه عليها حكم عادل ؛ إذا همت نفسه بأمر قام به بلا تردد ولا إبطاء ؛ كل هذه المزايا خدمته فى أعماله السياسية والحربية »

واقتطفت مجلة رعمسيس فى عددها التاسع من السنة الخامسه من خطاب لسعادة أحمد زكى باشا سكرتير مجلس الوزراء سابقاً عن طاس

صلاح الدين « وقد كان القبط يحبون هذا الملك العظيم ـ صلاح الدين ـ الذى حماهم وراعاهم ، وعرفوا فى ظله أيام السعادة والهناء ، وأي دليل على هذا أكبر من وضع صورته إلى جانب الآنية المقدسة » ثم أردفت المجلة هذا بقولها «زار أحد شعراء الأندلس (عبدالمنعم الأندلسي) فى ذلك الحين مصر ، فدهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين ، فنظم فى ذلك قصيدة تمثل الحقيقة التاريخية منها هذان البيتان »

خطوا بأرجاء الهيا كل صورة ... لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم

يدين لها قس ويرقى بوصفها ... ويكتبه يشقى به فى التمائم

وبمناسبة ما جاء فى هذه المجلة عن طاس صلاح الدين أذكر أن زكى باشا عثر على طاس نحاسية (طاسة خضة) وألقى عليها محاضرة تاريخية باللغة الفرنسية فى المجمع العلمي المصري ، وطبع الخطبة فى كراسة صدرها بصورة صلاح الدين ، وهو يقول عن هذه الصورة إنه أخذها من صديقه المرحوم الشيخ مصطفى القبانى الدمشقي الذى نقلها عن كتاب روسي يؤكد مؤلفه أنه وجدها فى إحدى أديرة مصر ، والرسالة نافعة مفيدة وصف فيها زكى باشا تلك الطاسات وقيمتها الطبية فى نفوس العامة ، ثم ذكر من بين هذه الطاسات طاس صلاح الدين ، وإنما سميت كذلك لأنها أهديت إليه ، واستدل على أنها أهديت إلى صلاح الدين بعدة براهين نازعه فيها حضرة الأثري على بهجت بك أمين دار الآثار العربية ، وكان وجه الخلاف على ما أذكر لقب من الألقاب التى وجدت منقوشة على الطاس (قسيم أمير المؤمنين) وبهجت بك ينكر هذا اللقب على صلاح الدين ؛

ويظهر أن الموضوع كان أقل من أن يتناقش فيه إلى هذا الحد الذى وصلت له المناقشة ؛ على أنى لا أرى داعياً يدعو بهجت بك إلى أن ينكر على صلاح الدين لقب (قسيم أمير المؤمنين) وها هى الجريدة الرسمية المصرية فى عهد المغفور له محمد على باشا تقول عن ديوانه (الديوان الخديوى) وقد وجدت عريضة مكتوبة فى الوقائع الرسمية أيام محمد على باشا يقول فيها مقدمها « إلى سعادة الخديوى محمد على باشا » مع أن لقب خديوى ما وجد إلا بعد تولية المغفور له إسماعيل باشا ؛ وعلى هذا فقد يكون الناس قد لقبوا صلاح الدين بلقب (قسيم أمير المؤمنين) كما لقبوا ساكن الجنان محمد على بلقب خديوى . أخذت المناقشة بين المتناظرين دوراً كبيراً على صفحات الجرائد ثم أسدل عليها الستار ، وانتهت كما انتهى وينتهي غيرها من المجادلات فى بلدنا

على أنه يجب علينا ألا نخضع خضوعاً صرفاً إلى ما رآه زكى باشا ولا إلى ما رد به بهجت بك ، فأن المشكلة لم تحل بعد ، وهى ان النقوش التى استعملت فى مصر وبلاد الشرق عامة لم تكن مقيدة غالباً بعصر ولا بملك ، ولم تنشأ مدارس لدراسة النقوش العديدة وتاريخها وتعيين واضعيها ، كما هو شأن النقوش اليونانية أو اللاتينية ، حتى يكون القول الفصل فى هذه الآثار إلى المتخرجين فيها ، فقد ظهر من الاستقصاء أن الدول المتعاقبة كان يحاكي اللاحق فيها السابق فى زخرفه ونقوشه ، وكثيراً ما كان اللاحق يزيد فى النقوش أو ينقص منها أو يغير فيها ، لكن لا إلى الحد الذى يجعلها خاصة بعصر أو بملك ، ومن هنا يجيء الشك الذى بنينا عليه عدم الأذعان

إلى واحد من المتناظرين

تلك حياة صلاح الدين كما رأينا كلها حرب وقتال وجهاد ؛ على انه رغم هذا قام بأعمال عمرانية يذكرها له التاريخ . رأى أن التدريس فى جامع الفسطاط (جامع عمرو) يسير على نحو ما هو حاصل الآن بالأزهر فابتنى سنة ٥٦٦ (١١٧٠) المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق وجعلها للشافعية ، وهى أول مدرسة أسست فى مصر ، ثم ابتنى المدرسة القمحية بالقرب من هذه ، وجعلها خاصة بالمالكية ، ثم ابتنى مدرسة الحنفية سنة ٥٧٢(١١٧٦)وجعلها فى دار الوزير البطائحى وتعرف الآن بالمدرسة السيوفية حسب رواية سعادة أمين باشا سامى ناظر مدرسة دار العلوم سابقاً فى كتابه عن التعليم فى مصر

ولم يقصر السلطان همه على فتح هذه المدارس بل رتب الوظائف للمدرسين والطلبة فيها على السواء ، فتمكن بذلك من نشر المذهب السني وإحلاله عند العامة والخاصة محل المذهب الشيعي

ويقول صاحب كتاب صبح الأعشى « وأما الخوانق والرُبُط فما لم يعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية ، وكان المبتكر لها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، فابتنى الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء ، ووقف عليها قيسارية الشرب داخل القاهرة وبستان الحبانية بزقاق البركة » ويقول أمين سامى باشا « مدرسة سعيد السعداء بشارع الجمالية تجاه حارة المبيضة ، بنيت برسم الفقراء الصوفية ، وتعرف الآن بجامع الخانقاه أو سعيد السعداء ، وكانت من دور الامراء الفاطميين »

على أن صاحب صبح الأعشى يقول «وسعيد السعداء لقب لخادم المستنصر الفاطمي اسمه قنبر كانت الدار له ثم صارت آخر الأيام سكن الصالح بن رزيك» ولعل سعادة سامى باشا أخذ ابن رزيك كأنه صاحب الدار باعتبار أن قد صارت سكناً له، كما أنه عدها مدرسة وهى لم تكن كذلك إلا بعد زمن صلاح الدين على اعتقادى

رأى صلاح الدين أن مصر ينبوع يانع يستق منه قوته البرية والبحرية، فبنى السفن وعمر الأسطول، وإلى هذا يشير سعادة احمد زكى باشا فى محاضراته فى الجامعة المصرية بقوله «وكان للأسطول أيام صلاح الدين ديوان مخصوص يسمى (ديوان الأسطول) وسامه لأخيه الملك العادل، فكان هذا الديوان يشبه ما كان معروفاً فى أيام المغفور له محمد على باشا (بديوان البحرية) وماهو معروف فى أوروبا الآن (بنظارة البحرية) وهى الآن صفر فى مصر لاعين ولا أثر؛ وكانت الأسكندرية ودمياط هما الموانئ البحرية فى ديار مصر، أضف إليهما مدينة تنيس التى هى الآن خراب بلقع؛ أما الفسطاط وقوص فكانتا من أعظم الموانئ النيلية، وكان فيهما إنشاء السفن الحربية التى ترابط بتلك الثغور، وتذهب للغزو فى البحر لأعلاء كلمة مصر، وجعل رايتها خفاقة فى الخافقين»

نظر صلاح الدين إلى الأسكندرية فوجدها محط أنظار الأفرنج، فخاف عليها منهم، فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها؛ ثم ابتنى بها بيمارستاناً، بعد أن ابتنى واحداً بمصر، وفيه يقول صاحب صبح الأعشى «ولما ملك السلطان الديار المصرية، واستولى على القصر، كان فى القصر قاعة بناها

العزيز بن المعز سنة ٣٨٤ هـ ، فجعلها السلطان بيمارستاناً ، وهو البيمارستان العتيق الذى بداخل القصر » ثم أنشأ السلطان بها داراً للغرباء، كما أنه تعهد بعض الجسور والترع ليصلح حال المزارعين ؛ ولما كان من عادته أن يسرح جنده فى الشتاء كان حال الزراعة على ما ينبغى

نظر إلى السكان وقد أثقلهم وزراء الفواطم بأنواع الضرائب المختلفة فأبطل المكوس ؛ وقرئت نسخة سجله على المنابر يوم الجمعة ٣ صفر سنة ٥٦٧ (٣٠ يونيه سنة ١١٧٠) وإليك بعض هذا السجل « وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور ، بمسامحة أهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل المقسم (المقس) والمنية بأبواب المكوس ، صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر ، ويغيب عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر براً وبحراً ، مركباً وظهراً ، سراً وجهراً ، لا يحل ما شده ، ولا يحاول ما عنده ، ولا يكشف ما ستره ، ولا يسأل عما أورده وأصدره ، ولا يستوقف فى طريقه ، ولا يشرق بريقه ، ولا يؤخذ منه طعمه ، ولا يستباح له حرمه »

من هذا السجل يدرك الأنسان مقدار ما كانت تصادفه الناس من شر هذه الضريبة وغيرها ، التى ما كانت تغادر غادياً ولا رائحاً إلا كشفت ستره ، ومدت أيدى العمال إلى ماله فسلبته ، وإلى متاعه فنهبته ، وأوصلت بعد ذلك منه إلى الخزانة السلطانية ما شاء لها طمعها . وقد نظم ابن جبير قصيدة فى المكوس وأرسل بها إلى السلطان صلاح الدين منها

رفعت مغارم أهل الحجاز ... بأنعامك الشامل الغامر
وآمنت أكناف تلك البلاد ... فهان السبيل على العابر

ثم يذكر ما وقع له وما يقع لأمثاله من المسافرين على يد المكّاس فيقول

يعنت حجاجَ بيت الأله ... ويسطو بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم ... وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا بعد ما كوشفوا ... كأنهم في يد الآسر
ويلزمهم حلفاً باطلا ... وعقبى اليمين على الفاجر
وإن عرضت بينهم حرمة ... فليس لها عنه من ساتر
أليس على حرم المسلمين ... بتلك المشاهد من غائر
فما للمناكر من زاجر ... سواك وبالعرف من آمر

من إبطال هذه المكوس يدرك الأنسان ما كان عليه السكان من لذلة من جهة ، وما كان يرغب فيه صلاح الدين من نشر التجارة وتسهيل سبلها من جهة أخرى ، لعلمه أنها مرقى الأمم إلى الحضارة والمدينة ، ولذلك قيل عنه إنه كان يبيحها مع الأفرنج فى أيام حربه معهم .

يشير ابن جبير فى قصيدته المتقدمة إلي إبطال مغارم أهل الحجاز ، وصحيح هذا فقد عُوض أمير مكة عنها فى كل سنة بألفى دينار وألف أردب من القمح سوى عدة إقطاع بالصعيد وباليمن ، فزال عن الحجاج ذلك العناء الذى كان يقف فى سبيل كثير من الراغبين فى أداء الفريضة .

هذا قليل من كثير من مناقب هذا السلطان الكبير والقائد العظيم والفاتح المظفر ، وعندى أن لو كثر بين ملوك المسلمين أمثال صلاح الدين لما وصلت الأمم الأسلامية من الضعف والوهن فى أمورها الداخلية والخارجية إلى ما وصلت إليه ؟

مصادر الكتاب

اعتمدنا فى بحثنا على كثير من الكتب القيمة المكتوبة باللغة العربية والأنجليزية والفرنسية ولم نقصر همتنا على قراءة تلك الكتب المطولة بل تصفحنا كذلك الكتب المدرسية وما فى حكمها من التى لم تكتب بأسهاب عن صلاح الدين مثل تاريخ ابن اياس وتاريخ أسامه وتاريخ المسعودى وابن الوردي وبعض كتب فقهية وأدبية كطبقات الشافعية للسبكى ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده المفتى وكتاب الأسلام ترجمة فتحي زغلول باشا وصبح الأعشى للقلقشندى وكمعجم ياقوت الحموى وحماة الأسلام والتعليم فى مصر لأمين سامى باشا وكبعض الرحلات والمجلات وإلى حضرات القراء طائفة من أمهات الكتب العربية التى رجعنا إليها فى هذا البحث

اسم المؤلف	اسم الكتاب
ابن الأثير	الكامل وماعلى هوامشه من الكتب
ابن خلدون	العبر وديوان المبتدا والخبر ـ بولاق سنة ١٢٨٤ هـ
ابن خلكان	وفيات الأعيان ـ مصر سنة ١٣١٠ هـ
ابن جبير	رحلة ابن جبير
ابن دحلان	الفتوحات الأسلامية
ابن شداد	النوادر السلطانية ـ مصر سنة ١٣١٧ هـ
أبو الفداء	المختصر فى أخبار البشر ـ مصر سنة ١٣٢٥ هـ
اسماعيل سرهنك	حقائق الأخبار عن دول البحار ـ بولاق سنة ١٣١٤ هـ

obeikandl.com

البستانى	دائرة المعارف
السيوطى	حسن المحاضرة ـ مصر سنة ١٣٢٩ هـ
المقريزى	الخطط ـ مصر سنة ١٣٢٤ هـ
جورجى زيدان	مصر الحديثة
سيد على الحريرى	الحروب الصليبية ـ مصر سنة ١٣٢٩ هـ
شهاب الدين المقدسى	كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين
عماد الدين الكاتب	الفتح القسى فى الفتح القدسى ـ مصر سنة ١٣٢٢ هـ
محمود فهمى	البحر الزاخر ـ مصر سنة ١٣١٢ هـ
ميخائيل شارويم	الكافى ـ مصر سنة ١٣١٥ هـ
فريد وجدى	دائرة معارف القرن العشرين

الكتب الأفرنجية غير المدرسية وما فى حكمها

Authors	Books
Edward A. Freeman	General Sketch of European History
Sayed Ameer Ali	Short History of the Saracens
The Times	Historians' History of the World
Muir. Sir W. T.	The Caliphate. Its Rise. Decline & Fall
Stanley Lane-Poole	Saladin
» »	The story of Cairo
Steven Son. W. B.	The Crusaders in the East.
Washington I.	The Lives of the Successors of Moh.
Besant, W, &Palmer, E. H.	Jerusalem
Larouse, P.	Grand Dictionnaire Universal 15 vols.
Justave, Le bon	La Civilisation des Arabes.
Dezobry et Bachelet	Dictionnaire deGeographiéet d'Histoire
Michaud J. F.	Histoire des Croisades.
Maily J. E.	L'esprit des Croisades.
	Encyclopoedia Britannica

obeikandl.com

فهرست الكتاب

ص أ ـ ى مقدمة بقلم الأستاذ الدكتور طه حسين

ص ١ ـ ٧ تمهيد

ص ٨ـ١٥ الفصل الأول فى الدولة العباسية : —

الخلافة واختيار الخلفاء ـ فارس مهد الدعوة العباسية ـ حضارة العباسيين ـ بدء الضعف فى الدولة ـ الموالى واستبدادهم بأمر الخلافة ـ استقلال عمال الأطراف ـ ظهور الديلم ـ تغلب السلاجقة وظهور الروح الحربي ـ وظيفة أمير الأمراء والخطبة له ـ انشاء الأمرات لأصحاب المناصب فى الدولة ـ ضعف الدولة وظهور الأسر المختلفة

ص ١٦ ـ ٢٩ الفصل الثانى فى الحروب الصليبية: —

الدعوة إليها ـ قيام أهل أوروبا ـ بطرس الناسك ـ البابا أربانوس الثانى ـ أسباب هذه الحروب ـ اختلاف المؤرخين فيها ـ سبب نجاح الأفرنج فى تملك الولايات اللاتينية بالشام ظهور محمود نور الدين زنكي ثم صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ سبب فشل الأفرنج ـ القضاء على أملاك الأفرنج فى الشام ـ أثر هذه الحروب فى حضارة أوروبا

ص ٢٩ ـ ٣٥ صلاح الدين : قومه وعشيرته: —

الأكراد ومعيشتهم الأولى ـ لغتهم ـ ديانتهم ـ حكومتهم

obeikandl.com

أصلهم وتسميتهم ـ صناعاتهم ـ أسرة صلاح الدين ـ نسبها موطنها الأول ـ انتقالها إلى بغداد ثم إلى تكريت

ص ٣٦ ـ ٥١ صلاح الدين ـ أيامه الأولى :ـ

مولده ـ رحيل أهله من تكريت ـ حياته فى بعلبك ثم فى دمشق ـ تربيته وقول المؤرخين فيها ـ ما الذى كان يعمله ـ ماالذى تعلمه ـ كيف كان يقضى وقته

ص ٥٢ ـ ٧٤ صلاح الدين : ابتداء أمره قبل ملكه :ـ

ظهور السلاجقة ـ الوزير نظام الملك والأقطاع العسكري مصر وخلفاء الفاطميين ـ فتنة الوزارة بها ـ وزارة شاور الأولى ـ تغلب الضرغام عليه ـ هرب شاور إلى نور الدين وحملة شيركوه الأولى ـ وزارة شاور الثانية ـ محالفته لملك القدس أملريك ـ غزوة شيركوه الثانية ـ نقض أملريك شروط المحالفة ـ تحرج مركز شاور ـ استنجاد الخليفة الفاطمي بنور الدين ـ حملة شيركوه الثالثة ـ مقتل شاور ـ وزارة شيركوه ـ وفاته

ص ٧٥ ـ ١٠٠ حياة صلاح الدين العملية : الدور الأول فى مصر :ـ

صلاح الدين وزيراً للفاطميين ومندوبا لنور الدين ـ فتنة العبيد ـ الأفرنج فى دمياط ـ غزوة مدينة غزة وبلاد القدس الجنوبية ـ استيلاء صلاح الدين على مدينة العقبة ـ الخطبة للخليفة العباسي ـ وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين وانقراض

دولتهم ـ توزيع كنوز القصر وكتبه وسياسة صلاح الدين التى اتبعها مع المصريين ـ فكرة بناء القلعة والسور ـ سياسته مع نور الدين ـ غزوة الشوبك والجفوة بينه وبين نور الدين إيفاد صلاح الدين أخاه طوران شاه إلى السودان ـ غزوة الكرك وازدياد الجفوة ـ وفاة نجم الدين أيوب ـ غزوة بلاد اليمن ومؤامرة عمارة اليمنى واتفاقه مع الأفرنج ـ فشل المتآمرين ـ كسر الأفرنج فى غزوتهم الأسكندرية ـ وفاة نور الدين ـ موت ملك القدس أملريك

١٠١ — ١٢٨ الدور الثانى: صلاح الدين فى الشام: ـ

الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين والأمراء الشامية ـ سيف الدين صاحب الموصل واستيلاؤه على أملاك الملك الصالح ـ سياسة صلاح الدين ـ انتقال الملك الصالح من دمشق إلى حلب ـ كمشتكين واستبداده بأمر الملك الصالح ـ خوف الأمراء من كمشتكين واستنجادهم بسيف الدين صاحب الموصل ثم بصلاح الدين ـ قيامه من مصر إلى دمشق واستيلاؤه عليها ـ مسيره إلى حلب ومحاصرتها العمل على اغتيال حياة صلاح الدين ومحالفة كمشتكين للافرنج ـ تحالف الملك الصالح وسيف الدين صاحب الموصل الحرب مع صلاح الدين وانهزام المتحالفين ـ حصار حلب ثانية ـ محاولة اغتيال صلاح الدين مرة أخرى ـ حصار حلب

ثالثة ـ الصلح بين المتحاربين ـ خلع الخليفة العباسي وأمره بالولاية لصلاح الدين ـ قطع الخطبة للملك الصالح ـ غزوة بلاد الأسماعيلية ـ عودته إلى مصر ـ بدء بناء القلعة ـ غزوة الأفرنج لجهات دمشق ـ قيام صلاح الدين إلى عسقلان وغزوة جهات فلسطين الجنوبية ـ انهزامه ـ رحيله بالجيش من مصر إلى دمشق ـ بناء الأفرنج قلعة يعقوب ـ نزاله الأفرنج وتخريب قلعة يعقوب ـ مهادنة الأفرنج له ـ غزواته فى جهات سوريا الشمالية ـ محالفة أمرائها له ـ عودته إلى مصر ـ نقض أمير الكرك شروط الهدنة ـ وفاة سيف الدين صاحب الموصل ـ وفاة الملك الصالح إسماعيل ـ قيام صلاح الدين إلى الشام ـ الأغارات على بلاد الأفرنج ـ حصاره لبيروت ـ رحيله عنها إلى الموصل ـ تحالف أمراء الجزيرة معه ـ حصار الموصل ـ استيلاؤه على سنجار وغيرها مسيره إلى حلب واتفاقه مع صاحبها ـ دخوله حلب ـ رحيله إلى دمشق ـ غزوة أمير الكرك لبلاد العرب وانهزامه حصار الكرك ـ الصلح مع الأفرنج ـ مرضه والصلح مع أمير الموصل

ص١٢٩١ — ١٨٥ الدور الثالث : صلاح الدين فى فلسطين: —

أحوال مملكة القدس واختلاف كلمة الافرنج فيها ـ انحياز ريامونـد إلى جانب صلاح الدين ـ صاحب الكرك وقافلة

حجاج المسلمين — اجتماع جيوش المسلمين — اجتماع كلمة الأفرنج — واقعة حطين واستيلاء صلاح الدين على طبرية — قتل أمير الكرك وبعض أسرى الأفرنج — استيلاء المسلمين على عكا وبيروت وغيرهما — اهمال صلاح الدين مدينة صور ومحاولته منع كونارد من تحصينها — فتح عسقلان وما جاورها — مسيره إلى بيت المقدس واستردادها — معاملته لأفرنج القدس حين خروجهم — تطهيره الأماكن المقدسة واستحضاره المنبر الذى أنشئ للمسجد الأقصى أيام نور الدين — حصار صور وتقهقر المسلمين ونتيجة ذلك — النداء فى أوروبا بحملة صليبية لأنقاذ بيت المقدس — مسير السلطان إلى أنطاكية وطرابلس فك أسر الملك جوى — الصلح مع صاحب أنطاكية — استيلاء المسلمين على عدة بلاد — قيام الأفرنج على عكا وحصارها وصول الأمبراطور فردريك باربا روس وغرقه — وصول فيليب ورتشارد — مسير الأفرنج إلى يافا — محاولة الصلح مع السلطان — تخريب عسقلان وغيرها — الرحيل إلى القدس قصد الافرنج القدس — العدول عنها إلى عسقلان وتعميرها مقتل كنونارد — العودة إلى قصد القدس — العدول عنها إلى غيرها — مسير الأفرنج إلى عكا — اقتفاء المسلمين أثرهم ودخولهم يافا — ارتدادهم عنها — الصلح ووساطة الملك العادل شروطه — مغادرة رتشارد الشام إلى بلاده — نتيجة الحرب

مسير صلاح الدين إلى القدس ثم إلى دمشق ـ وفاته
ص١٨٦ — ٢٠٠ خاتمة
صفات صلاح الدين وأخلاقه وسيرته فى رعيته ـ ماقاله سمو
الأمير محمد على ـ زيارة أمبراطور ألمانيا لقبره ـ أقوال الأفرنج
فى صلاح الدين ـ أعمال صلاح الدين المدنية ـ فتح المدارس
انشاء الخوانق والرُبط ـ بناء السفن وإصلاح الجسور ـ بناء
البيمارستانات ـ إبطال المكوس
ص٢٠١ — ٢٠٢ المصادر التى عولنا عليها فى كتابة هذا الكتاب
﴿ الخرائط والصور ﴾
صلاح الدين ـ البابا أربانوس الثانى ـ بطرس الناسك
الملك أمورى ـ خريطة القاهرة ـ قلعة صلاح الدين ـ خريطة
فتوحات صلاح الدين ـ نسر صلاح الدين ـ بيت المقدس
حصن الأكراد ـ قبر صلاح الدين ـ خريطة أملاك صلاح الدين

(ملاحظة) وقع الخطأ المطبعي الآتي فأعتذر لحضرات القراء :

ص	س	خطأ	صواب
١٣	١٠	ان	أنه
٤٨	١٥	الواقد	الوافد
٥١	١٠	٧٢ هـ	٥٧٢ هـ
٦٠	١٤	بتخريد	بتجريد
٦٤	١٥،١٧	البلد	البلدة
٨٠	١٢	هو	هم
٨٠	١٥	التعرص	التعرض
٩٠	١	الامير	الأثير
٩١	٢	عدل	بدل
٩٣	١٢	الى	إلا
١٦٤	١٨	حراكاته	حركاته
١٦٨	١٨	اللائبنى	اللاتينى
١٨٥	١٦	اعترفوا	اغترفوا
١٩٤	٢	استولوا	استولى

obeikandl.com